بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 16 فبراير 2016

الخيمياء:
جذورها الفلسفيّة وتأويلاتها الصوفيّة

محمد البوغالي
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة للدراسات والأبحاث

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

غالباً ما يتمّ تعريف الكيمياء القديمة (الخيمياء) باعتبارها علماً هدفه الوصول إلى كيفية تصنيع الذهب وتحويل المعادن عن طريق تتبع جملة من العمليات المخصوصة. من ثمّة كانت للخيمياء أصول فلسفية مرتبطة بنظرية المادة في التقاليد العلمية والفلسفية اليونانية، إذ تعود النصوص الخيميائية المعروفة لدينا إلى الكتابات المحرفة للفلاسفة الإغريق أمثال ديمقريطس وأفلاطون وفيثاغورس، كما أنّ أصداء الفلسفات الشرقية حاضرة في كثير من الممارسات الدينية داخل الممارسات «العلمية»، ومن المعلوم أنّ اليونان ينسبون الكيمياء لهرمس المثلث بالحكمة أو العظمة Hermès trismégiste، وهو الاسم المرادف لـ «توت» إله الحكمة والعلوم عند قدماء المصريين؛ وهذا الارتباط بين الكيمياء القديمة وهرمس، ومن ثمّ بجوهر الفلسفة الهرمسية، يجعلها مؤهلة لأن تكون عبارة عن فكر وعقيدة وعلوم لا تلقن بالوسائل التعلمية، بل تتذوق وتنكشف لأشخاص بلغوا من الكمال مبلغاً كبيراً، كما سبق أن كشفت للبشر قبلهم بواسطة هرمس.

ترصد الدراسة أوجه التماثل بين النظام الخيميائي والفلسفي القديم وبين التصوف في فترات تاريخية متنوعة وفي بيئات ثقافية مختلفة، وفي غضون ذلك نلاحظ كيف يتبادل التصوف والخيمياء التأثير حتى ليصعب أن نميز فيهما بين الأصل والفرع، فمرّة نجد أنّ التحول المعدني رمز للتحول الروحي للكائن، غير أننا نعثر في مواضع أخرى على العكس، أي أنّ التحول المعدني ليس إلا محاولة لتطبيق المنهج الصوفي على المعادن، .... إلخ.

وتظهر الدراسة أنّ بعض النصوص الخيميائية لا يمكن أن تكون إلا شروحاً صوفية بامتياز، وفيها تظهر النتائج المخبرية نتيجة للرؤى والإلهامات والمجاهدات العنيفة والقاسية في الخلوة، وفي تلك النصوص تتداخل التحولات المعدنية مع التحولات الروحية إلى درجة يصعب معها الفصل بين النوعين من التحولات، بل يكاد يكون الصفاء المعدني مجازاً تعبيرياً للصفاء الروحي. ويعزز هذا الأمر أنّ من بين الأهداف التي سعت الخيمياء إلى إنجازها في كثير من مراحلها التاريخية تحقيق السعادة المطلقة في رحاب الألوهية والتطابق مع العالم نفسه.

كان الحصول على «الحجر الفلسفي» اكتشافاً للمطلق، وللسبب الحقيقي الذي يمكن الخيميائي من الوجود في جميع الأمكنة والأزمنة، وامتلاك المعرفة الغنوصية الحقة[1].

أ - الخيمياء والفلسفة الصوفية

لعل في أصل الكلمة «كيمياء» أو «خيمياء» ما يعزز المدلولات الصوفية والروحانية الباطنية التي تحتويها، فيظهر جانبها الاشتقاقي أنها عربية في شكلها (لا خلاف في أنّ أل التعريف عربية) ولكنها يونانية في جذورها: (خيم). من هنا اعتقد بعض المؤرخين أنّ أصل الكلمة مصري، وأنها تعني «أسود»، ويقصد بها إمّا تربة النيل السوداء أو بعض أنواع السحر الأسود، أو المسحوق الأسود لتكحيل العيون. ولكنّ السيميائي اليوناني الشهير «زوسيموس» المنتمي إلى مدرسة الإسكندرية يقترح أنّ الكلمة أطلقها الملائكة - الذين وقعوا في حب نساء الأرض- على الجنس البشري[2]. وأكثر دلالة من هذا كله ما يشير إليه الخوارزمي في حديثه عن مفردة «كيمياء»، فاسم هذه الصناعة عربي، واشتقاقه من كمى يكمي، بمعنى ستر وأخفى؛ ولذا يقال كمى الشهادة يكميها إذا كتمها[3].

وغالباً ما يتم تعريف الكيمياء القديمة (الخيمياء) باعتبارها علماً هدفه الوصول إلى كيفية تصنيع الذهب وتحويل المعادن عن طريق تتبع جملة من العمليات المخصوصة. يقول ابن خلدون عن علم الكيمياء: «وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها تكوين الذهب والفضة، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك».[4] ولمّا كان هذا الأمر يتطلب معرفة خواص الجواهر المعدنية، فإنّ تعريفات أخرى ركزت على طرق سلب وجلب تلك الخصائص، كتعريف حاجي خليفة الذي يقول: «علم الكيمياء هو علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصية جديدة إليها».[5]

وبناء على ذلك، تُعدّ الكيمياء القديمة أو الخيمياء ممارسة تقليدية سابقة عن المرحلة العلمية لعلم الكيمياء الحديث، وهي فرع من الكيمياء العامة كالطب وعلم الفلزات والصنعة، إلا أنّ الخيمياء قد انبثقت عن الإطار العام الذي تحدده كلمة كيمياء؛ ويمكن التمييز بينهما بكون الكيمياء تعني تحديداً تقنية حرفية، في حين أنّ الخيمياء تعنى بالاختبار الأولي للفرضيات الكيميائية. وبما أنّ موضوع الكيمياء القديمة الرئيس هو التحول،

1- Serge Hutin: L´Alchimie, 8éme édition, PUF, Paris, 1991. p 12.

2- را: كاتي كوب وهارولد جولد وايت، إبداعات النار، تاريخ الكيمياء المثير، من السيمياء إلى العصر الذري، ترجمة فتح الله الشيخ، سلسلة عالم المعرفة، ع 266، الكويت، 2001، ص 42

3- مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة، 1342 هـ، ص 146

4- المقدمة، تحقيق الجويدي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ص 506

5- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح وترتيب وتعليق يالتاقايا والكلس. بغداد، د. ت، ج2/ 1526

أي تحول إحدى المواد إلى مادة أخرى، فقد وضعت الخيمياء هاته الفرضية موضع الاختبار واستمر الخيميائيون في ذلك عشرة قرون[6].

إنّ عملية التحول التي تخضع لها المعادن هي عملية في غاية الخطورة والسريّة، وهي غير متاحة للعامة، لكونها عبارة عن أسرار خُصّ بها قوم معينون. وهذا الطابع السري يجعلها في مصاف المعارف الباطنية ويبعدها عن خانة العلوم التجريبية التي لا تتطلب من متعلمها أكثر من النباهة والذكاء والتفوق العقلي. إنّ الكيمياء على هذا الأساس «مجموعة من المعلومات والمهارات والأسرار التي تتعلق بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب».[7]

وتحتل الكيمياء في مجال الباطنية مكانة أساسية لم يقدر لعلم آخر أن يتبوأها، فهي تتجاوز كونها ممارسة علمية، أو انشغالاً مخبرياً، أو بحثاً نظرياً، فتوصف بأنها «حكمة». ولعل في وصف معرفة معينة بأنها حكمة مدعاة للتأمل، إذ أننا نجهل كيفية الانتقال داخل مجال الكيمياء من مجال العلم إلى مجال الحكمة. ويزداد الأمر إغراقاً عندما نطلع على ما يرويه لنا مصنفو العلوم كالخوارزمي (ت 387هـ) من أنّ المحققين من المهتمين بالكيمياء يسمونها «الحكمة على الإطلاق[8]». إنها ليست حكمة فحسب، وإنما هي أقصى حالات الحكمة الممكن بلوغها إطلاقاً.

وقد التفت ابن خلدون (ت 808هـ) إلى روحانية الكيمياء الثاوية خلف واجهة الانشغالات العملية الدنيوية، ونبّه إلى كونها محاطة بهالة من الرموز والأسرار والألغاز، ممّا يستبطن تحذيراً ضمنياً من عدم الانخداع بأشكالها الخارجية التي لا تمثل إلا إيحاء رمزياً لموضوعات أخرى لا تفصح عن ذاتها بشكل مباشر، من هذا المنطلق أعلن «العلامة» أنّ الكيمياء «ليست بصناعة طبيعية، إنها من جنس آثار النفوس الروحانية».[9]

وعلى كل حال، فإنّ التعريفات السابقة تفضي بنا إلى الوقوف على الطابع الباطني القوي للكيمياء، ذلك أنّ أول ما يواجه الباحث وهو يدرسها أنها علم غامض، مجهول، وبلا جذور. صحيح أنّ له أصولاً فلسفية مرتبطة بنظرية المادة في التقاليد العلمية والفلسفية اليونانية، إذ تعود النصوص الخيميائية المعروفة لدينا إلى الكتابات المحرفة للفلاسفة الإغريق أمثال ديمقريطس وأفلاطون وفيتاغوراس، كما ترجع إلى بعض الملوك كالإسكندر المقدوني وكيلوباترا، وأحياناً لبعض الآلهة كهرمس وإيزيس وغيرهم، كما أنّ أصداء الفلسفات الشرقية حاضرة في كثير من الممارسات الدينية داخل الممارسات «العلمية» الكيميائية، إلا أنّ المدهش هو

6- را: كاتي كوب وهارولد جولد وايت، م. س، ص 42

7- يوسف ميخائيل أسعد، السحر والتنجيم، دار نهضة مصر، القاهرة، 1978، ص 192

8- مفاتيح العلوم، ص 146

9- المقدمة، ص 513

ظهورها الفجائي الواضح، وذلك في الفترة التاريخية التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية، ومن ثمّة تطورها في بيئة محاطة بالأسرار والرموز.[10]

من هذا المنطلق، تفوح رائحة ارتباط قوية وقديمة بين الخيمياء والفلسفة الباطنية، فهي ترد في الكتابات التاريخية باعتبارها «صنعة إلهية[11]»، كما تنسبها إلى جماعة من الفلاسفة والحكماء كهرمس وأسطانيس وفيثاغور[12]. ومن المعلوم أنّ اليونان ينسبون الكيمياء إلى هرمس المثلث بالحكمة أو العظمة Hermès trismégiste، وهو الاسم المرادف لـ «توت» إله الحكمة والعلوم عند قدماء المصريين[13]. وهذا الارتباط بين الكيمياء القديمة وهرمس، ومن ثمّ بجوهر الفلسفة الهرمسية، يجعلها مؤهلة لأن تكون عقيدة باطنية، وليس فقط مجرد ممارسة عملية لتصنيع الذهب، إنها عبارة عن فكر وعقيدة وعلوم لا تلقن بالوسائل التعلمية، بل تتذوق وتنكشف لأشخاص بلغوا من الكمال مبلغاً كبيراً، كما سبق أن كشفت للبشر قبلهم بواسطة هرمس. وإذا ما توخينا أكبر قدر من الدقة في تحديد علاقة الكيمياء بالباطنية ألفينا أنّ الأولى تبقى في النهاية شكلاً تطبيقياً للثانية[14].

إنّ اقتران الكيمياء بالباطنية لا يتوقف عند حدود البدايات الغامضة وسط سديم من الآراء والنظريات الدينية والفلسفية والأسطورية، بل إنه يتجاوز ذلك فيظهر جلياً في مراحل لاحقة من تطور الفلسفة اليونانية، وعلى الخصوص عند الفلاسفة الهرمسيين المنتمين لمدرسة الإسكندرية الفلسفية، لدرجة أننا نجد عند زوسيموس أنّ الفن الكيميائي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بـ «**الدين الباطن**»، وأنّ العمل عنده لا يزيد على تلاوة رقيات في خلوة يبلغ فيها المريد أعظم مراتب الحكمة والقداسة[15]. وقد كان هذا التطور إيذاناً بانحراف الكيمياء عن المنهج التجريبي إلى المنهج الباطني الصوفي، إمّا تحت تأثير الفلسفات الشرقية في الإسكندرية أو بسبب إخفاق الطرق المادية في تحقيق التحول المعدني وتصنيع الذهب. وهكذا حصل تغير في هويّة المستهدف من التدابير الكيميائية، من الذهب إلى روح الذهب، وأصبح التحول الروحي هو الهدف الجديد للخيميائيين، ومع الزمن تضاءلت أهمية المادة والمواد المعدنية في الصنعة الخيميائية، إلى حد أنه لم يتبق من المنهج سوى الطقوس السرية والتعاويذ[16].

10- Serge Hutin: L´Alchimie, p 5.

11- حاجي خليفة، كشف الظنون، ج2/ 1532

12- إنّ هذه الشخصيات هي من ستتولى الدور الأساسي في تغذية الفكر الباطني: هرمس الملهم الأول لكل التيارات الباطنية وفيثاغور مؤسس أول جمعية سرية ذات بناء باطني متكامل.

13- من مظاهر تأثير كلمة «هرمس» في اللغة المعاصرة، أنه إذا أريد التعبير حالياً عن إناء محكم الإغلاق لا يمكن تسريب شيء منه قيل: إنه مختوم بخاتم هرمس. را: محمد فياض، جابر بن حيان وخلفاؤه، سلسلة اقرأ، ع 21، القاهرة، 1956، ص 12

14- Cf: Serge Hutin: L´Alchimie, p 9.

15- را: نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، دار المعارف، القاهرة، 1962، ص 45

16- را: كاتي كوب وهارولد جولد وايت، إبداعات النار، ص 51

وممّا يزيد الخيمياء غموضاً ارتباطها في أذهان المؤلفين والكتاب وكذلك عامة المتتبعين لشؤونها بصورة مفعمة بالجاذبية الشديدة، فافتتن بها أناس متعددو الأهداف والمنازع، وسعوا إلى الاشتغال بها، وكان بينهم مجانين وذوو أطماع وسذج، فاختلط العلماء والفلاسفة بالمهلوسين والسحرة والمشعوذين والمحتالين وصانعي السموم ومزيفي النقود،[17] ...إلخ.

إنّ هذا الخليط المفتقد للانسجام بين المشتغلين بالكيمياء يدفعنا إلى أن ندير ظهورنا قليلاً للتعريفات التي تختزل الكيمياء القديمة في مجرد صناعة الذهب وتحويل الخسيس منها إلى ثمين، لأنها كانت في الواقع أكثر تعقيداً وشرفاً.

لم يكن الخيميائيون يهدفون إلى الاغتناء أبداً، كان ذلك شأن المتطفلين عليها من ذوي الأطماع أو من الذين يجهلون أسرارها ـ بالمعنى الباطني للسر ـ وحقيقتها وروحها: أي أولئك الذين أضاعوا أوقاتاً كثيرة في نشدان المستحيل وخداع العامة، والذين كانت تراودهم أحلام الاغتناء ويسحرهم بريق الذهب. على العكس من ذلك كان الخيميائيون الأصيلون - قبل أي شيء - متأملين لنظام القوانين الحقيقية التي تنظم المادة خدمة لسموّ الروح، وهذا ما يجعلنا نتفهم مبالغاتهم في اتخاذ أشد الإجراءات احتياطاً من أجل الإبقاء على أسرارهم بعيداً عن أعين الغرباء والفضوليين[18].

ولكنّ الأمر ليس بمثل هذه البساطة، فبالرغم من إدانة غالبية النصوص الخيميائية للدجالين الذين تنحصر أسباب تعاطيهم للخيمياء في الحصول على المال، فإنّ هؤلاء الذين يقومون في العادة بمواجهة الدجالين وإدانتهم، كانوا هم أنفسهم يقدمون خدمات للملوك والأمراء ويعدونهم بتصنيع الذهب. من هنا يتوجب الفصل بين خيميائيين يرتبط نشاطهم بتجارب تافهة وآخرين معروفين بتدريسهم للفلسفة الهرمسية، وكان هذا الصنف الأخير دائم الازدراء بالصنف الأول، بحيث يصفونهم بالنفاخين Les souffleurs، أي أولئك الذين تقتصر وظيفتهم على استعمال المنفاخ من أجل تنشيط النار في الموقد. ويبلغ هذا الازدراء مداه حينما يصف أحد السيميائيين الكيمياء بأنها العلم الذي يشتغل به عامل متدرب في مختبر فيلسوف هرمسي[19].

ب - الخيمياء التأويلية والتحول الرمزي

بالرغم من كلّ الصلات المتينة بين الباطنية والخيمياء، والتي أتينا على ذكرها، فإنّ أمر هذه الصلات يبقى من القضايا التي لا يمكن في الوقت الحالي توضيحها بشكل جلي وحاسم. لقد وصل الارتباط بينهما مداه الأبعد حينما أصبحت الخيمياء أصلاً من أصول الباطنية، إذ من المعروف أنّ الباطنية مرتبطة أساساً بالنص

17- Cf: Serge Hutin: L´Alchimie, p 5.

18- ibid.

19- cf: Alexandrian, Histoire de la philosophie occulte, Payot, Paris, 2008, pp 182-183.

المكتوب، ولهذا أصبحت لها مكانة هامة في ظل الأديان الكتابية، فالباطني انطلاقاً من إيمانه بهذا النص الموحى به من عند الله، والذي يعمل على توجيه فكره، يجد نفسه دوماً في ما يدعوه هنري كوربان بـ «الحالة التأويلية»، وهي الحالة التي بمقتضاها يعمل على استمرار التأويل، لكنّ خاصية الخيمياء أنها لا ترجع إلى نص مقدّس، ولا تعتبر نفسها أداة للتفسير الباطني للنص، كما أنّ النصوص الخيميائية لا تعتبر نفسها أبداً ذات مصدر متعالٍ أو ذات أصل إلهي، وإنما تقدمها الأدبيات الخيميائية باعتبارها تفسيرات وتأويلات لأعمال معملية، ومهما اكتسته النصوص الخيميائية من دلالة رمزية روحية، فإنه من الضروري الانتباه إلى أنّ فاعليتها وليدة الملاحظة المباشرة والفورية للظواهر الطبيعية، فهي تُعدّ تجاوزاً لمسيرة التفسير الكتابي الباطني، وهي بذلك منفصلة عن التقاليد الدينية[20].

وتتجلى هذه الوظيفة التأويلية في الخيمياء من خلال ثنائية الدلالة التي يمكن أن نعود بها إلى بدايات الخيمياء، فقد كان اصطيفانوس الإسكندري Stéphanos d’Alexandrie يميز بين نوعين من الخيمياء: الخيمياء الأسطورية mythique alchimie والخيمياء الصوفية alchimie mystique. تتميز الأولى بنوع من الخلط والفوضى الناجم عن تنوع وتعدد اللغة التي تتحدث عن الخيمياء، بينما تستند الثانية على منهج يعتمد على الحديث عن كيفية خلق العالم بواسطة الكلمة le Verbe، إنها مهمة رجل ذي عقل إلهي، أو من أصل إلهي، إنه رجل يشبه الإله، إنه الفيلسوف[21].

لقد دفع هذا التداخل بين نمطين متناقضين من الاشتغال داخل الخيمياء بإمبرتو إيكو Umberto Eco - وهو يحلل الخطاب الخيميائي - إلى الحديث عن نظامين أو نوعين من الخيمياء[22]: فهناك الخيمياء العملية التطبيقية التي تهدف إلى إنتاج الذهب وهناك الخيمياء الرمزية أو الباطنية التي تعمل على مستوى المجاز والاستعارة. النوع الأول يهتم بتحويل المعادن، بينما يشكل الثاني إحدى ظواهر الغنوص الهرمسي. يُعدّ النوع الأول مرحلة سابقة على الكيمياء التي قامت بإلغاء الخيمياء وإبطالها، لأنّ الخيمياء العملية التطبيقية كانت لها في العمق أهداف الكيمياء نفسها، ولهذا كان الخيميائيون يتوصلون داخل معاملهم عن طريقة التجربة أو المصادفة إلى المسارات نفسها التي استطاعت الكيمياء أن تسلكها بعد ذلك، وأحياناً عن طريق اعتماد الصيغ الخيميائية نفسها. لقد انتهت الخيمياء العملية إلى الاندثار والزوال، ولكنّ انشغالاتها ستستمر في الكيمياء الحديثة كما يوضح لنا تاريخ العلم.

20- را: بيار لوري، هنري كوربان والخيمياء الروحانية، ضمن مجلة المحجة، العدد 7، صيف 2003- 1423، ترجمة خيري شعراوي، ص ص 217-216

21- CF: Maria k. Parathanassio: l’œuvre alchimique de Stéphanos d’Alexandrie: structure et transformation de la matière, unité et pluralité, l’énigme des philosophes.in: L’Alchimie et ses racines philosophiques.la traditions grecque et la tradition arabe. Vrin, Paris, 2005.

22- Les limites de L’interprétation .Trad de L’Ita par Myriem Bouzaher . Editions Grasset 1992, p 89.

أمّا النوع الثاني (الخيمياء الرمزية الباطنية) فقد عرف على العكس من ذلك ازدهاراً كبيراً، وظلّ بمنأى عن كشوفات العلم المعاصر، سيثمر ويعرف ازدهاراً على الصعيد الصوفي والباطني والهرمسي، ولكن لن تكون له أية قيمة علمية. أمّا التأويل السيكولوجي للخرافات الرمزية التي تعجّ بها الخيمياء الرمزية فهو الذي بيّنه يونغ الذي كان أكبر مناصر للرمزية الخيميائية باعتبارها كشفاً عن النماذج الأصلية Archétypes للّاوعي.

إنّ ما يجعل اللغة الخيميائية هرمسية وعصية على الفهم هو دخولها في نطاق علم الترميز Cryptologie الذي يسعى إلى إخفاء أسرار التصنيع، فالخيمياء بهذا المعنى خفية عن العامة الذين يجهلون مدلولات الرموز، ولكنها واضحة بالنسبة إلى الخيميائيين الذين يعرفونها، ولكن لمّا كانت اللغة الموظفة في الخيمياء هي اللغة الاستعارية، فإنها تصبح غير واضحة من الناحية العلمية حتى بالنسبة إلى بعض أصناف الخيميائيين، لأنّ الصناع أنفسهم يعجزون عن الوصف الدقيق لبعض الخصائص والمراحل التي لا يدركون بالضبط طبيعتها.

ولقد أدى هذا الحرص من جهة الخيميائيين على عدم تسرب المعرفة إلى العامة إلى استخدام مصطلحات بديلة ترمز إلى مبادئ علمهم، فأطلقوا على كل أداة أو معدن من المعادن رمزاً خاصاً: فالشمس رمز للذهب، والقمر رمز للفضة، والزهرة رمز للنحاس، وزحل رمز للأسرب، والمريخ رمز للحديد، والمشتري رمز للرصاص القلعي، وعطارد رمز للخارصيني[23]. لقد كان علم التنجيم بدوره علماً باطنياً بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، كما سنرى لاحقاً، وفي استعارة الكيمياء مصطلحات التنجيم دليل على تأثرها به من جهة وعلى العلاقات الحميمة التي تجمع التقاليد الباطنية بمختلف مظاهرها العلمية من جهة ثانية.

لقد أدت الرموز الخيميائية وظيفتها في تعمية الدلالة، وأصبح من المستحيل على العامة من الغرباء والأجانب اختراقها، وهذا ما أوضحه حاجي خليفة بتأكيده أنّ «الحكماء أشاروا إلى طريقة صنع الإكسير [الخيمياء] وكيفيته عن طريق الأحاجي والألغاز للتعمية، لأنّ في كتمه مصلحة عامة، فلا سبيل إلى الاهتداء بكتبهم».[24] تصبح وظيفة الكتب عكسية تماماً؛ إذ بدل أن تسعف في توضيح ما يفترض أنها تعرضه، فتقود قارئها إلى بغيته، فإنها تضلله، مفترضة كونه فضولياً متلصصاً على معرفة لا تتناسب ومستواه المعرفي أو الأخلاقي، أو طارقاً للحكمة من غير بابها، لذلك تواجهه بطابور من الاصطلاحات الغامضة والمبهمة. وهذا الإبهام لا يفهم إلا على ضوء استحضار الامتزاج الذي حصل بين الخيمياء والنظريات والأطروحات

23- را: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص 174

وينسب مؤرخ الكيمياء الشهير برتهلو إلى الفيلسوف الأفلاطوني المحدث أولمبيودور Olympiodore الذي عاش في القرن الخامس الميلادي تصوراً قريباً جداً ممّا عرضه الخوارزمي.

Cf: Berthelot: Les origines de l'alchimie, Georges Steeinheil éditeur Paris, 1885. p 49.

24- كشف الظنون، ج2/ 1530

الفلسفية الباطنية والصوفية السائدة آنذاك. وهذا الحضور الفلسفي والفكري القوي داخل الخيمياء هو ما يدفعنا إلى أن ندير ظهرنا إلى الرأي الشائع الذي يعلل تكتم الخيميائيين بمجرد أنانيتهم واعتدادهم بأنفسهم، ومن ثمة نعتبره تعليلاً بسيطاً، بل وأقرب إلى السذاجة[25]، ذلك أنه يعيد نقل الحجة الخيميائية التي يفترض أنها مضللة، والتي سعى الخيميائيون بمقتضاها إلى إبعاد الغرباء والفضوليين عن كلّ التفاصيل والشروحات التي يمكن أن تسهم في فهم علومهم وتجاربهم.

كتمان وأسرار وأساطير...، نحن في صلب العقيدة الباطنية إذن، بحيث تتضح المعالم الكبرى لفرع من المعرفة حامل لكلّ المميزات المشكلة لفن مكتوم ومخفي تحظر إذاعته على العامة. ويضاف إلى هذا أنّ الخيمياء لم تكن على الدوام لتنتقل إلا عبر تقليد شفوي أو مكتوب وبسرية من الأستاذ العارف (الشيخ) إلى تلامذته (مريديه) بواسطة أدب مرموز[26] يضمن بقاء المادة الباطنية في منأى عن غير مستحقيها.

نسجت الخيمياء علاقات متينة مع الباطنية بتلاوينها الفكرية المتعددة، حتى إنه أصبح ينظر إلى عقيدة الخيميائيين السرية بأنها أمّ العلوم جميعاً وأقدمها، فهي التي درست العالم وتاريخه، وانكشفت للبشر بواسطة الإله هرمس، ومن هنا أخذت هذه العقيدة اسم الفلسفة الهرمسية، ولكن من المتعسف أن تخلط هذه العقيدة الأولى مع الجوانب العملية الناشئة في قلب الانشغالات الخيميائية بعد ذلك بزمن طويل، فالخيمياء هي قبل كلّ شيء ممارسة، وبما أنها كذلك، فقد كانت تطبيقاً للفلسفة الهرمسية.[27]

ولقد تمتنت صلات الخيمياء بالباطنية عبر وساطة الرمز والرمزية، فكانت لها علاقة جدّ متينة مع الغنوص الذي يقوم بتعليم المعنى الحقيقي للنظريات الفلسفية والدينية المستورة تحت حجاب الرموز، وتبدو الخيمياء باعتبارها عقيدة مهتمة بتعقب معرفة الخاصيات المستورة للمادة، وتقوم بتمثيلها في شكل رموز، وقد أدى هذا التقارب في الأدوار والوظائف إلى شغف متبادل بين الخيمياء والغنوص، وقد قام الخيميائيون باستعارة نمط الغنوصيين المعقد، واستخدموا رموزهم نفسها[28].

إنّ الإلحاح على الطابع القوي للرموز في الموضوعات الخيميائية يعني أنه تمّ شحن الخيمياء بالغموض الذي سيظل خاصية ملازمة لها طيلة قرون من تاريخها، وقد نتج عن هذا الأمر أننا لا يمكن أن نتأكد ممّا إذا كانت الخيمياء تتحدث عن المعادن فعلاً وتسعى فعلاً إلى تصنيع الذهب، أو أنّ كل اللغة الخيميائية وكل

25- يرى حكمت نجيب عبد الرحمن أنّ أنانية الكيميائيين وترفعهم من الأسباب التي قد تكون مسؤولة عن باطنية الكيمياء، وهذا في نظرنا تعليل في غير محله للاعتبارات التي أوردناها. را: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص 247

إنّ إرجاع التكتم الذي يكاد يكون ظاهرة قوية تقع في صلب الكيمياء القديمة وعقائدها ينتهي إلى تبسط شبه ساذج لفكر عنوانه السرية والانتحاء نحو الباطنية. قد يكون التبرير المذكور مقبولاً في مجال غير باطني، فتكون السرية في العمل بدافع الترفع آنذاك احتمالاً قائماً من احتمالات عدة، وأمّا والأمر يتعلق بعقيدة وممارسة سريتين فالأمر يتجاوز بكثير أخلاقيات وسلوكات العلماء إزاء العامة.

26- C f: Serge Hutin, Op cit, p 7.

27- Ibid, pp 8-9.

28- Ibid, p 38.

الطقوس والتدابير والخطوات العملية التي تتحدث عنها إنما هي رموز لأشياء أخرى، لأسرار دينية، أو أنها ترمز إلى طبيعة الحياة نفسها أو عن تحول روحي[29]. فحين تتحدث النصوص الخيميائية عن مواد مألوفة وشائعة كالذهب والزئبق فإنها تقصد شيئاً آخر: إنّه ذهب وزئبق الفلاسفة اللذان لا صلة لهما أبداً بالمادتين اللتين نعرفهما. ويفهم ممّا يكتبه العديد من الأنصار المعاصرين للخيمياء الرمزية أنّ الهدف من الخيمياء هو تحول في الشخصية يقتضي من بين جملة أخرى من التحولات امتلاك كفاءات نفسية خارقة وقدرات تسمح بالتأثير في الطبيعة الحيوانية والنباتية والمعدنية.

إنّ الخيميائي العملي لا يمكن أن يتجاهل أنّ الفرن الذي يطهو فيه مواده ومعادنه هو الاستعارة الأكيدة للرحم الذي سيشهد ولادة المواد المتحولة، إنه استعارة لكل سيرورة واهبة للحياة، في حين أنّ صاحب الخيمياء الرمزية في الأوساط المسيحية لا يمكن أن يستغني عن المذهب المسيحي والأساطير التقليدية التي سيرجع إليها كلها للبرهنة على أنّ جميع أساطير التحول والتولد، بما فيها بطن السيدة مريم، كانت استعارات تلمح للممارسة الخيميائية[30].

ومن الأفكار القديمة جداً المرتبطة بالخيمياء والتي لا يمكن الرجوع بها إلى أي تاريخ محدد، فكرة باطنية مفادها أنّ هناك مطابقة بين الكون والإنسان، بين المرئي واللامرئي، وأنّ ما يحدث للإنسان (العالم الأصغر) هو نتيجة لما يحدث في الأعلى (العالم الأكبر). وطبقاً لمبدأ المطابقة هذا، فإنه من الممكن أن تخضع المعادن للمراحل والتحولات نفسها التي يخضع لها الكائن البشري في نموه وتطوره.

إنّ المعادن نفسها في القسمة الخيميائية أرواح وأجساد. فأمّا المعادن المصنفة في حانة الأرواح فهي الكبريت والزرنيخ والزئبق والنوشادر، وسُمّيت كذلك لأنها تطير إذا مستها النار. وأمّا تلك التي تدخل في نطاق الأجساد فهي الذهب والفضة والحديد والنحاس والأسرب والرصاص القلعي والخارصيني، وسمّيت كذلك لقدرتها على الثبات والمقاومة إزاء النار[31]. وكما أنّ النفس الإنسانية تمرّ إلى أعلى مراتب كمالاتها من خلال تجربة الموت والبعث الرمزيين، فإنّ المعادن أيضاً يمرّ الخسيس منها إلى مرتبة الكمال (حالة الذهب)، وذلك عبر عيش تجربة الموت الرمزي المتمثل في الصهر عند تعريضه لحرارة النار. إنّ الصهر في هذه الحالة يمثل رعاية المعدن والمرور به تدريجياً إلى حالة التحقق المثالي من خلال مستويات متعددة متعاقبة. وهذا الاعتقاد قائم على الإيمان العميق بأنّ المعادن حيّة، وأنّ حالتها الصحية هي حالة الذهب، وباقي الحالات التي تتسم بها المعادن الأخرى ممّا سوى الذهب هي حالات مرضية وناقصة، ولهذا كانت تعني الرغبات والأهواء المرضية التي تعوق تطور الكائن الإنساني الأصيل[32].

29- Eco, op cit, p 89.

30- ibid, p 90.

31- را: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص 147

32- را: يوسف ميخائيل: السحر والتنجيم، ص 192

يتبادل التصوف والخيمياء التأثير، حتى ليصعب أن نميز فيهما بين الأصل والفرع، فمرّة نجد أنّ التحول المعدني رمز للتحول الروحي للكائن، غير أننا نعثر في مواضع أخرى على العكس، أي أنّ التحول المعدني ليس إلا محاولة لتطبيق المنهج الصوفي على المعادن . ففي أحد نصوص الكرماني، يذهب إلى القول إنّ النفس كانت في بدء وجودها غير مستعدة لتلقي «البركات الإلهية»، ويشبهها بالأجسام المعدنية القاصرة على أن تصير ذهباً، ولكي يتحقق في النفس هذا الكمال الذي يطابق كمال المعادن، لا بدّ من توفر عنصرين: «أحدهما تهذيبها أولاً من أوساخها، وتهيؤها بتحليلها وتسليط النار عليها لتصير بذوبانها وانحلال أجزائها متهيئة لقبول ما يرد عليها من الصنع الجاعل إياها في رتبة كمالها. وثانيهما إلقاء الصنع عليه آخراً [...] فلا يتمّ له [المعدن] أمر كما لا يتم للمريد أن يصنع جسماً وهو لم يذوبه بالنار، إذ الشيء إذا أخذ من طريقه تيسر، وإذا طلب من غيره تعسر».[33]

إنّ الطريق التي يتحدث عنها الكرماني لا يمكن أن تكون سوى «المسارة» initiation وذلك بتعريض المريد للاختبارات القاسية وتمكينه من التدرج في المراتب الغنوصية حتى يبلغ مراتب الكمال مثله في ذلك مثل المعدن الخسيس (الحديد) الذي يتحول بالمسارة والمجاهدة معدناً شريفاً (الذهب). ولكن كيف يتسنى للمريد أن يحرق ذاته، أن يعرضها للنار من أجل أن تتبوأ المراتب العرفانية العليا في التنظيم الباطني؟ بعبارة أخرى: إذا كانت النار هي المحك الأكبر لتهذيب المعادن، فما الذي يطابقها ويماثلها في عالم المريد؟ يجيبنا الكرماني بأنها «أعمال الشريعة التي هي العبادة [التي] تجري من النفس مجرى النار من الأجسام المعدنية المهيئة».[34]

إنّ وظيفة الشريعة بالنسبة إلى المريد تعادل وظيفة النار بالنسبة إلى المعدن، وهي التأكد من مؤهلاتهما وخبراتهما النفسية (المعدن يتنفس كما سنرى) والجسدية والسماح لهما بالتدرج ليكتسبا امتيازات باطنية وسياسية في آن واحد، وهو ما يتيح لهما أن يتسلقا أعلى الهرمية: الذهب/ الولاية.

يتأسس على ما سبق أنّ الفكر الخميائي يرتبط بنظريات الخلاص الباطنية وبالغنوصية وبفكرة التطهير وبالتصوف. فهدف الخيميائي لم يكن في العمق البحث عن الذهب المادي، بل تطهير النفس وتحقيق التحولات المتنامية للروح. ولهذا رأى العديد من الكتاب أنّ **الخيمياء كانت في واقع الأمر تصوفاً**، وكانت المعادن الخسيسة تعني الرغبات والأهواء الأرضية وكلّ ما يعيق نمو الكائن الإنساني الأصيل، أمّا حجر الفلاسفة فهو بناء على هذا التصور نتيجة العمل الخيميائي: الإنسان المتحول، وتحول المعدن محاكاة لتحول عميق في النفس. ويفسر هذه الفكرة مقطع من الفصول السبعة لهرمس، يشرح كيف أنّ «الأثر الخيميائي» الذي يُعدّ الحلم الأول في الخيمياء، وبمقتضاه يتحقق التحول المعدني هو في حقيقته تحول داخلي في أعماق الخيميائي،

33- راحة العقل، تحقيق مصطفى غالب، ط 2، دار الأندلس، 1983، ص ص 99-100

34- م. ن، ص 101

يخاطب هرمس مريديه قائلاً: «إنّ «الأثر» معكم، وفي أعماقكم، بالشكل الذي يجعل البحث عنه داخلكم، إنه معكم حيثما كنتم، على الأرض أو في البحر».[35]

بعض النصوص الخيميائية لا يمكن أن تكون إلا شروحاً صوفية بامتياز، وفيها تظهر النتائج المخبرية نتيجة للرؤى والإلهامات والمجاهدات العنيفة والقاسية في الخلوة، وفي تلك النصوص تتداخل التحولات المعدنية مع التحولات الروحية إلى درجة يصعب معها الفصل بين النوعين من التحولات، بل يكاد يكون الصفاء المعدني مجازاً تعبيرياً للصفاء الروحي. ويعزز هذا الأمر أنّ من بين الأهداف التي سعت الخيمياء إلى إنجازها في المرحلة الهيلينستية «تحقيق السعادة المطلقة في رحاب الألوهية والتطابق مع العالم نفسه Ame du monde وعقد الصلة مع الأرواح السماوية».[36]

ويبقى التصور الأعظم للخيمياء هو فن «الماجنا» (الفن الكبير)، والمسمّى أحياناً الفن الملكي، والذي نجده في أوروبا واضحاً، خصوصاً لدى بعض كتّاب القرن الخامس عشر، وها هو ذا التعريف الذي يعطيه واحد من شراحهم المعاصرين وهو سيفوريت A. Sévoret حيث يقول: «الكيمياء الحقيقية والتقلدية هي معرفة قوانين حياة الإنسان والطبيعة، وإعادة تشكيل السيرورة التي بواسطتها فقدت هذه الحياة الدنيا المغشوشة- بسبب الهبوط الآدمي- صفاءها وإشراقها وكمالها وامتيازاتها الجوهرية، وتمكينها من استعادة كلّ ما فقدته، وهذا ما يُدعى في «الإنسان الأخلاقي» خلاصاً أو بعثاً، وفي «الإنسان الفيزيقي» تقمصاً، وفي الطبيعة تطهيراً أو كمالاً، وفي عالم المعادن تصفية Quintessenciation[37]».

وربما كان من النصوص الأكثر أهمية في ربط الخيمياء بالتصوف والباطنية، نص شيعي منسوب إلى الإمام الأول في النظرية الإمامية الشيعية، وكان الهدف من النص الذي يشكل جزءاً من خطبة - واسمها «خطبة البيان» - هو الكشف عن الطبيعة الحقيقية للإمام باعتباره التجلي الأعظم والأكمل للإله، وفي بعض روايات الخطبة زيادات وإضافات خاصة بالخيمياء، فقد أجاب علي بن أبي طالب عن استفسارات المستمعين بخصوص الخيمياء قائلاً: «تسألونني عن أخت النبوة، أشهد بالله أنّ الخيمياء وجدت، ولم تزل موجودة، فلا يوجد على ظهر الأرض من شجرة ولا يابس ولا شيء آخر إلا ويستمد أصله منها أو ليس جزءاً منها».[38] إنّ هذا النص المشكوك في أصالته والذي وصلنا متأخراً، (فهو مؤرخ بالقرن الرابع في حين أنه يحاول أن يرتفع بالفكرة الخيميائية إلى الفترات التاريخية الأولى للإسلام) يحاول أن يقدم الخيمياء باعتبارها علماً مقدّساً بكل حقوقه، فهي أخت النبوة[39].

35- Cf: Serge Hutin: L´Alchimie, pp 10-11.

36- C F: Ibid, p 41.

37- Ibid, p 11.

38- هذا النص أورده بيار لوري في مقاله: هنري كوربان والخيمياء الروحانية، ص 225

39- م. ن، ص 226

وقد انتبه الدوميلي إلى أنّ الباطنية الشيعية التي تمثلها بامتياز الأدبيات الإسماعيلية، قد وثقت صلتها بالخيمياء من جهة وبين معارفها الرمزية وفكرها التأويلي، وأنّ جابر بن حيان (ت 190هـ) أشهر الكيميائيين العرب هو من أعلام الإسماعيلية الباطنية.[40] كما يرجع الفضل إلى المستشرق «بول كراوس» في الكشف عن الميولات الباطنية لجابر. والواقع أنّ جملة من النصوص المتعلقة بأمور صوفية وباطنية تظهر بما لا يدع مجالاً للشك نسبة جابر إلى الأوساط الإسماعيلية الباطنية، وعلى الخصوص في صيغها الفكرية المبكرة.

وممّا له دلالة في توضيح الميولات العرفانية لجابر بن حيان ما يخبرنا به القفطي (ت 646هـ) عن جابر بأنه كان من المتقدمين في العلوم الطبيعية، وخصوصاً منها صناعة الكيمياء، وأنّ له فيها تآليف كثيرة، وينعته **بالصوفي**، ويذكر عنه تقلده «للعلم المعروف **بعلم الباطن** وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام».[41]

إنّ السياق الباطني لجابر بن حيان يتجاوز التصوف، كما انتبه إلى ذلك ابن النديم الذي حصر الخلاف بين مجموعة من الطوائف تدّعي كلّ منها انتماءها لجابر، فالشيعة تقول: «إنه من كبارهم، وأحد الأبواب [رتبة باطنية ممتازة] وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم، وزعم أهل الذهب والفضة [الخيمياء] أنّ الرئاسة انتهت إليه في عصره، وأنّ أمره كان مكتوماً، [...] وقيل إنه كان في جملة البرامكة، ومنقطعاً إليها ومتحققاً بجعفر بن يحيى، فمن زعم هذا قال إنه عنى بسيده جعفر، هو البرمكي، وقالت الشيعة إنما عنى جعفر الصادق».[42]

بهذا ينحصر الخلاف في الانتماءات المذهبية لجابر بن حيان بين الصنعويين الكيميائيين، والشيعة والفلاسفة والبرامكة. وتؤكد نصوص عدة أنّ المقصود بجعفر الوارد في نصوص جابر بن حيان هو جعفر الصادق وليس جعفر البرمكي. ففي رسالة من رسائله[43] يحمد الله تعالى على أن أخرجه في زمان فيه صفوة نبيه جعفر الصادق (هكذا).

وفي رسالة أخرى يحمد جابر الله تعالى على «ما سلف من العلم على مدى صفوة عباده وأحب خلقه إليه في زمانه الذي أنتجه واصطفاه وكرمه بالإمامة ومنزلة النبوة والعلم بالغيوب التي صنع منها جميع خلقه، إلا الإمام [...] يجعله لهم سراجاً يستضيئون به ونوراً يهديهم في ظلمات البر والبحر وعلماً يأمر به فلا

40- را: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، ط1، دار القلم، 1962، ص 111

41- را: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت، د ت. وقارن مع ما أورده صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان. ط1، دار الطليعة، بيروت، 1985، ص ص 152- 153

42- الفهرست، تحقيق رضا تجدد المازندراني، طهران، 1971، ص 420

43- را: كتاب اللاهوت، ص ص 7، 8. ضمن تدبير الإكسير الأعظم، أربع عشرة رسالة في صنعة الكيمياء، تحقيق بيير أوليري.

يضلون. وذلك سيدي **جعفر بن محمد**، سيد أهل زمانه، وخير خلقه، فنحن نسأله أن يوصل إلينا ما أعطاه في هذه الدنيا». ومعلوم أنّ جعفر بن محمد الصادق الوارد في النص غير جعفر بن يحيى البرمكي[44].

وإذا ما غضضنا الطرف عن هذه المحاولة الشيعية السابقة لاحتواء الخيمياء وإدماجها في الأنسقة الميتافيزيقية للعرفان الشيعي، فبإمكاننا أن نكتشف العديد من الدلالات والأبعاد الرمزية الروحية الثاوية خلف الانشغالات المعملية. فعند اطلاعنا على جملة من الحكم الخيميائية، فإننا نتردد إن كانت دلالتها معدنية أو روحية، أهي طبيعية مادية أم صوفية إشراقية، ففي كتاب لوح الزبرجد Tabla de esmerabla وهو نص هرمسي عربي مفقود عبارة عن اثنتي عشرة حكمة رمزية، حفظت في أصلها اللاتيني نقرأ ما يلي:

- النار تتحول إلى تراب، افصل التراب عن النار تستنر.

- الرقيق أشرف من السميك.

- الرقيق يرتفع قليلاً قليلاً نحو السماء، يلبس النور ويرجع إلى الأرض، له قوة الأشياء العلوية والسفلية، فيه يوجد نور الأنوار، وبواسطته تبتعد الظلمة عنه، إنه قوة كلّ قوة ويقهر جميع الأشياء، إذ إنّ الرقيق اللطيف يدخل في الخشن.[45]

إنّ كل حديث عن صفاء المعدن ونقائه هو في عمقه خطاب يحمل في طياته **استعارات روحية**، وهذا هو الدرس الذي نستخلصه من الرؤيا الصوفية الشهيرة للخيميائي الإسكندري زوسيموس التي يعلن فيها أنّ خطوات العمل الخيميائي كانت تتوضح له في الأحلام. يقول زوسيموس: «بينما أقول هذه الأشياء، سقطت نائماً ورأيت كائناً يضحي أمام مذبح له شكل قبة، وكانت هناك خمس عشرة درجة سلم تصعد إلى المذبح. وقف الكاهن هناك، وسمعت صوتاً من أعلى يقول: «لقد أكملت هبوط الخمس عشرة درجة سائراً نحو **النور**، وأنا أتجدد بالتضحية متخلصاً من الطبقة الثقيلة للجسد، وهكذا بالضرورة أصير روحاً. ولدى سماعي صوته، هذا الذي وقف عند المذبح الذي على شكل قبة، سألته من يكون؟ وقد أجابني في صوت حاد بالكلمات الآتية: «أنا أيون كاهن المقدسات وأنا أقاسي عنفاً غير محتمل». بعد هذه الرؤية استيقظت ثانية، وقلت ما معنى هذه الرؤية؟ في المذبح الذي على شكل قبة تتولف الأشياء كلها وتتفكك وتتوحد وتترابط، تمتزج كلّ الأشياء وتنفصل، وفي الحقيقة فإنّ مزج وفصل الأشياء يحدث بطرق ومقاييس وأوزان دقيقة من **العناصر الأربعة**. وستجد ما تبحث عنه، والكاهن هذا **الرجل من النحاس**، قد غير من لون طبيعته وأصبح **رجلاً من الفضة**، وإذا كنت تود فإنك ستحصل عليه سريعاً **كرجل من الذهب**».[46]

44- را: م. ن، ص 157

45- را: سيمون الحايك: تعربت وتغربت أو نقل الحضارة العربية إلى الغرب، المطبعة البولسية، بيروت 1987، ص 219

46- إبداعات النار، ص 50

ويتأكد الحضور الصوفي في التجربة الخيميائية على الخصوص إذا أضفنا لما سبق، أنّ الشواهد التاريخية التي تعود بالخيمياء إلى جذور أعمق، تؤكد ظهورها وسط أتباع الديانة التاوية الصينية[47]، فالبحث عن الذهب كان يقتضي أيضاً بحثاً عن الطبيعة الروحية، ولهذا يذهب «ميرسيا إلياد» إلى أنّ الذهب - الذي يمتلك خاصية إمبريالية - كان يوجد في «مركز الأرض»، وأنه كان في علاقات صوفية مع معادن أخرى كالزرنيخ الأحمروالزئبق الأصفر، وأنّ المسألة مرتبطة بعقيدة ترتكز على القول بمسخ متسارع للمعادن. فالخيميائي لا يفعل إذن سوى التسريع في نمو المعادن، وكمثيله الغربي، فإنّ الخيميائي الصيني يساهم في عمل الطبيعة بتعجيل إيقاع الزمن، تمهيداً لتجاوز الشرط البشري والمشاركة في وجود غير زمني وفردوسي.

لقد كانت الخيمياء الصينية توظف ثلاثة عناصر مستقلة:

1- المبادئ الكونية التقليدية.

2- الأساطير المرتبطة بإكسير الخلود والقديسين الخالدين.

3- التقنيات المتبعة في إطالة العمر والنعيم والعفوية الروحية.[48]

تتشكل الخيمياء الصينية إذن من مبادئ وأساطير وتقنيات. وهي كلها تنتمي إلى تراث ثقافي يمتد إلى ما قبل التاريخ؛ والعلاقة وطيدة بين تحضير الذهب والحصول على شراب الخلود واستحضار الخالدين. كانت الخيمياء تهدف إلى تحصيل النقاء الروحي والخلود لمريديها، وقد سبق أن أشرنا إلى تعليق ابن خلدون وقوله عنها إنها من جنس آثار النفوس الروحانية. في هذا السياق يورد ميرسيا إلياد العديد من الوقائع التاريخية التي تظهر الارتباط بين الخيمياء باعتبارها فن تحضير الذهب، وبين نشدان الخلود، ومنها هذه الواقعة: يخاطب الساحر «ليو شاو- كيون» الإمبراطور «وو» WOO من الأسرة الملكية «هانا» قائلاً: «ضحّ للفرن» وتستطيع أن تحضر كائنات خارقة للطبيعة، وعندما تحضرها فإنّ رماد أكسيد الزئبق يمكن له أن يتحول إلى ذهب أصفر، وعندما يتمّ إنتاج الذهب الأصفر، يمكنك أن تصنع منه أدوات للأكل والشرب، وتكتسب بذلك عمراً طويلاً ومديداً، وعندما يتمدد عمرك الطويل تستطيع رؤية السعداء وعندها لن تموت[49].

ونعثر على الفكرة نفسها- التي يمكن أن نعتبرها أصلاً للقوى الخارقة التي يتمتع بها الباطني أو الصوفي- في كلّ الثقافات الإنسانية، فبمجرد الحصول على «الأثر الخيميائي» والإكسير والحجر الفلسفي،

47- حربي عباس عطيتو، ملامح الفكر الديني والفلسفي في مدرسة الإسكندرية القديمة دار العلوم العربية، ط 1 بيروت، 1992، ص 110

48- را: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس ط 2، دار دمشق، 2006، ج2/ 37

49- كان من أهداف الخيمياء في العصر الهيلينستي اكتشاف الترياق Panacee وهو دواء يشفي من جميع الأمراض ويمنح الخلود.

را: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج2/ 36

تبدأ الكرامات الخيميائية في الظهور، فيحصل المتحول على طول العمر، لا بل على الخلود، ولا يتمّ ذلك إلا بقوة جسم وصحة نتيجة الترياق، الدواء السحري، بل إنّ حجر الفلاسفة ينقل لصاحبه جميع أنواع القدرات المذهلة، ويجعله غير مرئي، ويتحكم في القوى السماوية، وينتقل حسب رغبته في الفضاء[50].

إنّ العقائد والممارسات الخيميائية التي تعبر بقوة عن تقليد باطني غير مقتصرة على ثقافة أو أمّة أو حضارة دون غيرها. إنها موجودة دائماً لتعكس ذلك التقليد الأولي الغامض الذي تنحدر منه كلّ التيارات الباطنية، ولتعكس أيضاً وحدة «اللاعقل البشري»، بدليل أنّ «هناك ممارسات خيميائية لدى ثقافات جدّ مختلفة وتجهل بعضها بعضاً. إنّ الخيمياء رغبة في التحكم في المادة وتحويلها، ليس فقط بأسلوب تقني ولكن أيضاً من أجل تأسيس رابطة معها، وعقد حوار يسمح باكتشاف النداء الباطني المقدّس لكلّ أشكال المادة».[51]

لقد كان من المثير للاستغراب حقاً أن نرى الخيميائيين مطاردين بالتحقيقات ومحاكم التفتيش، مثلهم مثل السحرة والهراطقة والزنادقة؛ فقد كانوا في مختبراتهم يشرعون في الصلاة من أجل تطهير أرواحهم قبل أن يشرعوا في إنجاز أعمالهم. بل إنّ الشعار الذي كانوا يتناقلونه من جيل إلى جيل لم يكن إلا «اقرأ، اقرأ، أعد القراءة، صلّ، وستجد».[52] ولكنّ الكنيسة اشتبهت في طموحات الخيميائيين الروحية، وربما أساءت فهمها- وربما كانت محقة- وأوّلتها على أنها رغبة في التساوي مع الله، ليس فقط من خلال التحكم في إغناء الناس، وذلك بتحضير كميات وفيرة من الذهب المحول، أو بإطالة الأعمار ومنح الخلود بواسطة المحلول الكيميائي المصنع في مختبراتهم: الإكسير، ولكن أيضاً بمقارنتهم ما بين تصنيع حجر الفلاسفة، وخلق آدم من طين (فهم يدعون مادتهم الأولى أحياناً باسم: التربة الآدمية). أمّا بعض المتهورين منهم فقد كانوا منشغلين إلى حد الهوس بعمليتين ضخمتين لم تنسبهما البشرية من قبل إلا للإله: بعث الأموات Palingénésie وإمكانية خلق إنسان مصغر l'Hommunculus[53].

لنشر قليلاً قبل إنهاء الحديث عن الخيمياء إلى علاقتها بالعلم؛ إنها لم تكن يوماً علماً بمعنى الكلمة، بل كانت جملة من المعارف الخفية التي لا تقبل أي تفسير طبيعي، وإنما تفسر ميتافيزيقياً؛ فهي أسرار تمّ تداولها وتناقلها شفهياً وباطنياً. إنها علم بلا أرشيف، اطلع عليه مريدوه بواسطة العلامات والرموز[54]. إنّ هذا الطابع الإخفائي occulte الذي يجعل من الخيمياء معرفة مجهولة العلة والتفسير هو ما حدا بالعديد من مؤرخي العلم إلى رفض النظر إليها باعتبارها مرحلة سابقة مرّ بها علم الكيمياء حتى أصبح بالشكل الذي عليه الآن،

50- Cf: Serge Hutin: L´Alchimie, pp 9-10.

51- F. Bonardel: L'Alchimie entre science et religion, in revue: science et avenir, décembre 1996, N 598, p 42.

52- Alexandrian, Histoire de la philosophie occulte, p 187.

53- Ibid.

54- لالاند، الموسوعة الفلسفية، ج 3/ ص 908

ومبرر ذلك أنّ «حصة الباطنية فيها رئيسية[55]»، ولأنها المجال الذي لم يبزغ فيه نور العلم على الإطلاق، بل كانت الفلسفة هي الطاغية، كما أنّ تعاليمها كانت تتجاذبها من ناحية المبادئ الميتافيزيقية الغامضة، ومن ناحية أخرى مبادئ السحر[56]. وارتباطها بالسحر راجع إلى اعتمادها على مبدأ التجاذب والتنافر السحري الذي تتصل الجواهر وتنفصل تبعاً لفعاليته. ثم إنّ الخيميائي لا يفترض شيئاً، بل يبحث عن أشياء يعرفها تمام المعرفة، وقد توصل إليها حكماء قدامى مثل هرمس، إلا أنّ السر قد فقد بعد ذلك. أمّا فشل الخيميائي فليس راجعاً لاستحالة ما يبحث عنه. لا، إنّ سبب ذلك هو عدم بلوغه مرتبة كافية من الكمال الأخلاقي. وبما أنه شخص لا يعرف الخطأ سبيلاً إليه، فإنه يستمر في إعادة العمليات نفسها مئات المرّات[57].

لقد كان الخيميائي رجلاً مطلعاً على أسرار مخصوصة، ولم يكن عالماً أبداً، كما أنّ معلوماته ومعارفه لم تكن يوماً ما علماً، بل أمانة مقدّسة يتوجب عليه أن يحفظ سرّها المقدّس.

55- J. Jaque: Le regard d'un chimiste sur l'art divin, in science et avenir, décembre 1996, N 598, p 47.

56- نجيب بلدي، تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، دار المعارف، القاهرة، 1962، ص 45

57- J. Jaque: op cit, p 47.

لائحة المصادر العربية:

- ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا تجدد المازندراني، طهران، 1971
- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق الجويدي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1995
- أسعد (يوسف ميخائيل)، السحر والتنجيم، دار نهضة مصر، القاهرة، 1978
- الدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، ط 1، دار القلم، 1962
- إلياد (ميرسيا): تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس. ط 2، دار دمشق، 2006
- بلدي (نجيب)، تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، دار المعارف، القاهرة، 1962
- جابر بن حيان: كتاب المنفعة، أربع عشرة رسالة في صنعة الكيمياء، تحقيق بيير أوليري
- جابر بن حيان: كتاب اللاهوت، ضمن تدبير الإكسير الأعظم، أربع عشرة رسالة في صنعة الكيمياء، تحقيق - بيير أوليري.
- جابر بن حيان: تدبير الإكسير الأعظم، ضمن: أربع عشرة رسالة في صنعة الكيمياء، تحقيق بيير أوليري.
- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح وترتيب وتعليق يالتاقايا والكلس. بغداد، د ت.
- حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، الموصل، 1977
- الخوارزمي: مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة، 1342 هـ.
- سيمون الحايك (سيمون): تعربت وتغربت أو نقل الحضارة العربية إلى الغرب، المطبعة البولسية، بيروت، 1987
- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان. ط1، دار الطليعة، بيروت، 1985
- عطيتو (حربي عباس)، ملامح الفكر الديني والفلسفي في مدرسة الإسكندرية القديمة، دار العلوم العربية، ط 1، بيروت، 1992
- فياض (محمد): جابر بن حيان وخلفاؤه، سلسلة اقرأ، ع 21، القاهرة، 1956
- القفطي (جمال الدين): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت، د ت
- كاتي كوب وهارولد جولد وايت: إبداعات النار، تاريخ الكيمياء المثير، من السيمياء إلى العصر الذري، ترجمة فتح الله الشيخ، سلسلة عالم المعرفة، ع 266، الكويت، 2001
- الكرماني (حميد الدين) راحة العقل، تحقيق مصطفى غالب، ط 2، دار الأندلس، 1983
- لوري (بيار)، هنري كوربان والخيمياء الروحانية، ضمن مجلة المحجة، العدد 7، صيف 2003 -1423، ترجمة خيري شعراوي.

لائحة المصادر الأجنبية:

- Alexandrian, Histoire de la philosophie occulte. Payot .Paris . 2008.
- Berthelot: Les origines de l’alchimie. Georges Steeinheil éditeur. Paris. 1885.
- Eco: (Umberto) Les limites de L’interprétation. Trad de L’Ita par Myriem Bouzaher . Editions Grasset 1992.
- F. Bonardel: L’Alchimie entre science et religion, in revue: science et avenir. décembre 1996. N 598.

- J. Jaque: Le regard d’un chimiste sur l’art divin, in science et avenir. Décembre 1996. N 598.

- Maria k. Parathanassio: l’œuvre alchimique de Stéphanos d’Alexandrie: structure et transformation de la matière, unité et pluralité, l’énigme des philosophes.in: L’Alchimie et ses racines philosophiques.la traditions grecque et la tradition arabe. Vrin. Paris, 2005

- Serge Hutin: L´Alchimie. 8éme édition. PUF. Paris. 1991.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016